المنتقى من كتاب
الوابل الصيب
ورافع الكلم الطيب لابن القيم

جمع
فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويرخ

حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين, نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...أما بعد: فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه, أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال: (يا معاذ, والله إني لُأحبك, أوصيك يا معاذ أن لا تدعن في دُبُر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) [أخرجه أبو داود] فينبغي ملازمة هذا الدعاء, فالعبد إذا أعانه الله جل جلاله على ذكره كان ذلك سهلاً عليه, وصار لسانه لا يفتر عن ذكر الله في جميع أحواله وأوقاته.

ولذكر الله عز وجل فضائل وفوائد كثيرة, وقد صنف العلامة ابن القيم رحمه الله, في ذلك كتاباً, سماه " الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب " ذكر فيه أكثر من سبعين فائدة للذكر, وذكر فوائد ولطائف في فنون متعددة, وقد يسّر الله الكريم لي فانتقيتُ شيئاً منها, أسأل الله أن ينفع بها, ويبارك فيها.

عناوين السعادة:

الله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة..أن يجعلكم ممن إذا أنعم الله عليه شكر, وإذا ابتلى صبر, وإذا أذنب استغفر, فإن هذه الأمور الثلاثة هي عنوان سعادة العبد, وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه.

محبطات الأعمال ومفسداتها:

ومحبطات الأعمال ومفسداتُها أكثر من أن تحصر, وليس الشأن في العمل, إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه.

فالرياء– وإن دقَّ– محبط للعمل, وهو أبواب كثيرة لا تحصر, وكون العمل غير مقيد باتباع السنة أيضاً موجب لكونه باطلاً, والمنُّ به على الله تعالى بقلبه مُفسد له, وكذلك المنُّ بالصدقة, والمعروف والبر والإحسان والصلة مُفسد لها, كما قال سبحانه وتعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ] [البقرة:264]

وأكثر الناس ما عندهم خبر من السيئات التي تحبط الحسنات وقد قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ] [الحجرات:2] فحذر سبحانه المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول صلى الله عليه وسلم كما يجهر بعضهم لبعض, وليس هذا بردّة, بل معصية يحبط بها العمل وصاحبها لا يشعر.

فما الظن بمن قدم على قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه وطريقه قول غيره وهديه وطريقه ؟ أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر

(4)ـ

استقامة القلب:

استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حُبُّ الله تعالى حبَّ ما سواه..وما أسهل هذا بالدعوى, وما أصعبه بالفعل! وما أكثر ما يُقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره.أو شيخه أو أهله على ما يحبه الله تعالى فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب.وسنة الله تعالى فيمن هذا شنه أن يُنكد عليه محابه ويُنغصها عليه, فلا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص, جزاءً له على إيثاره هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى...قد قضى الله عز وجل قضاءً لا يُردّ ولا يُدفع, أن من أحب شيئاً سواه عذبه به ولا بد, وأن من خاف غيره سلطه عليه, وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤماً عليه, ومن آثر غيره لم يُبارك له فيه, ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي...فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق, وطلب المنزلة والجاه عندهم, ويتقى المناهي خشية سقوطه من أعينهم, وخشية العقوبات الدنيوية..فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي, ولا عن تعظيم الآمر الناهي.

علامة التعظيم للأوامر:

رعاية أوقاتها وحدودها, والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها, والحرص على تحسينها, وفعلها في أوقاتها, والمسارعة إليها عند وجوبها, والحزن والكآبة والآسف عند فوات حق من حقوقها, كمن يحزن على فوت الجماعة, ويعلم أنه لو تُقُبلت منه صلاته منفرداً, فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفاً.

(5)ـ

علامات تعظيم المناهي:

فالحرص على التباعد عن مظانها وأسبابها وما يدعو إليها, ومجانبة كل وسية تُقربُ منها كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها, وأن يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس, وأن يجانب الفضول في المباحات خشية الوقوع في المكروهات, ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسنها ويدعو إليها, ويتهاون بها, ولا يبالي ما ركب منها, فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه, ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

ومن علامات تعظيم النهي: أن يغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه, وأن يجد في قلبه حُزناً وكسرةً إذا عُصى الله تعالى في أرضه, ولم يطع بإقامة حدوده وأوامره, ولم يستطيع هو أن يُغير ذلك.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حدٍّ يكون صاحبه جافياً غير مستقيم على المنهج الوسط.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن..يُسلم لأمر الله تعالى وحكمه, ممتثلاً ما أمر به, سواء ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه أو لو تظهر. فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على المزيد الانقياد بالبذل والتسليم لأمر الله.

من أراد الله به خيراً:

إذا أراد الله بعبده خيراً فتح له باباً من أبواب التوبة, والندم, والانكسار, والذل, والافتقار, والاستغاثة به, وصدق اللجأ إليه, ودوام التضرع, والدعاء, والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات....ورؤية عيوب نفسه, وجهلها, ظلمها, وعدوانها, ومشاهدة فضل ربه, وإحسانه, ورحمته, وجوده, وبره, وغناه, وحمده.

(6)ـ

ما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تفريط, وإما إفراط:

ما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط, وإما إفراط وغلو, فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخُطتين, فإنه يأتي إلى قلب العبد فيُشأمُه, فإن وجد فيه تقصيراً وفتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة, فثبطه وأقعده, وضربه بالكسل والتواني والفتور, وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك, حتى ربما ترك العبد المأمور جملة.

وإن وجد عنده حذراً وجداً, وتشميراً ونهضة, وأيس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد,وسوَّل له أن هذا لا يكفيك, وهمتك فوق هذا, وينبغي لك أن تزيد على العاملين, وأن لا ترقد إذا رقدوا, ولا تفطر إذا أفطروا, وأن لا تفتروا إذا فتروا,...فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم,كما يحملُ الأول على التقصير دونه, وأن لا يقربه.

ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم, هذا بأن لا يقربه ولا يدنو منه, وهذا بأن يتجاوزه ويتعداه.

وقد فتن بهذا أكثر الخلق, ولا يُنجي من ذلك إلا علم راسخ, وإيمان, وقُوَّة على محاربته, ولزوم الوسط, والله المستعان.

خمس سنن في الأذان:

* إجابته.* وقول: رضيت بالله رب, وبالإسلام ديناً, وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً, حين يسمع التشهد.

* وسؤال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة.

* والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم * والدعاءُ لنفسه ما شاء.

(7)-

دواوين الظلم عند الله عز وجل ثلاثة:

والظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة, ديوان لا يغفر الله منه شيئاً, وهو الشرك به, فإن الله لا يغفر أن يشرك به, وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئاً, وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً, فإن الله تعالى يستوفيه كله.

وديوان لا يعبأ الله به شيئاً, وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل, فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محواً, فإنه يُمحي بالتوبة والاستغفار, والحسنات الماحية, والمصائب المكفرة, ونحو ذلك, بخلاف ديوان الشرك, فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد, وديوان المظالم لا يُمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها, واستحلالهم منها.

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل, حرَّم الجنة على أهله, فلا يدخل الجنة نفس مشركة, وإنما يدخلها أهل التوحيد, فإن التوحيد هو مفتاح بابها, فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها, وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يُمكن الفتح به...وأسنان هذا المفتاح: الصلاة, والصيام, والزكاة, والحج, والجهاد, والأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, وصدق الحديث, وأداء الأمانة, وصلة الرحم, وبر الوالدين.

من فوائد الصدقة وثمارها الطيبة:

للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع أنواع البلاء, ولو كنت من فاجر أو ظالم, بل من كافر, فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء, وهذا أمر معلوم عند الناس.

والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه, وانفسح بها صدره,...فكلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح, وقوي فرحه, وعظم سروره, ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها.

(8)-

الالتفات المنهي عنه في الصلاة: التفات القلب, والتفات البصر:

الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان:

أحدهما: التفات القلب عن الله عز وجل إلى غير الله تعالى

والثاني: التفات البصر.

وكلاهما منهي عنه, ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته, فإذا التفت بقلبه أو بصره, أعرض الله تعالى عنه.

ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو قلبه, مثل رجل قد استدعاه السلطان, فأوقفه بين يديه, وأقبل يناديه ويخاطبه, وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً أو قد انصرف قلبه عن السلطان فلا يفهم ما يخاطبه به, لأن قلبه ليس حاضراً معه, فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ؟! أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مُبعداً وقد سقط من عينيه ؟! فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب, المقبل على الله تعالى في صلاته, الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه, فامتلأ قلبه من هيبته, وذلت عنقه له, واستحيي من ربه تعالى أن يقبل على غيره, أو يلتفت عنه, وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية: إن الرجل ليكونان في الصلاة الواحدة, وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض....وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل, والآخر ساهٍ غافل, فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب لم يكن إقبالاً ولا تقرباً فما الظن بالخالق عز وجل.

وإذا أقبل على الخالق عز وجل, وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس, والنفس مشغوفة بها, ملأى منها, فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار, وذهبت به كل مذهب ؟!

(9)-

الشيطان يغار من الإنسان إذا قام في الصلاة:

العبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه, فإنه قد قام في أعظم مقام, وأقربه, وأغيظه للشيطان, وأشدِّه عليه, فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه, بل لا يزال به يعدهُ ويُمنيه ويُنسيه, ويجلب عليه بخيله ورجِلِه حتى يهوِّن عليه شأن الصلاة, فيتهاون بها, فيتركها.

فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام, أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه ويحُول بينه وبين قلبه, فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها حتى ربما قد نسي الشيء والحاجة, وأَيِس منها, فيُذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها ويأخذه عن الله عز وجل فيقوم فيها بلا قلب, فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبلُ على ربه عز وجل الحاضرُ بقلبه في صلاته فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها, بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخفَّ عنه بالصلاة

فإن الصلاة إنما تُكفرُ سيئات من أدى حقها, وأكمل خشوعها, ووقف بين يدي الله عز وجل بقلبه وقالبه, فهذا إذا انصرف منها وجد خفَّة من نفسه, وأحسّ بأثقال قد وضعت عنه, فوجد نشاطاً وراحةً وروحاً, حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها, لأنها قرة عينه, ونعيم روحه, وجنة قلبه, ومستراحه في الدنيا, فلا يزال في سجن وضيق حتى يدخل فيها, فيستريح بها, لا منها, فالمُحبُّون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا, كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم صلى الله عليه وسلم: (يا بلالُ أرحنا بالصلاة) ولم يقل: أرحنا منها.

وقال صلى الله عليه وسلم: (وجُعلت قُرَّة عيني في الصلاة) فمن جُعلت قرة عينه في الصلاة, فكيف تقر عينه بدونها, وكيف يطيق الصبر عنها ؟!

(10)ـ

مراتب الناس في الصلاة:

الناس في الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: الظالم لنفسه, وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها, لكنه قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة, فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدوها وأركانها, وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار, فهو مشغول بمجاهدة عدوه, لئلا يسرق منه صلاته, فهو صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها, واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها, لئلا يضيع منها شيئاً, بل همُّه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها...قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك, ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل, ناظراً بقلبه إليه, مراقباً له, ممتلئاً من محبته وعظمته, كأنه يراه ويشاهده, وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات, وارتفعت حُجُبُها بينه وبين ربه, فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أعظم مما بين السماء والأرض, وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل, قرير العين به.

فالقسم الأول: معاقب, والثاني: محاسب, والثالث: مُكفَّر عنه, والرابع: مُثاب, والخامس: مُقرب لأن له نصيب ممن جعلت قرة عينه في الصلاة, فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرَّت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة وقرَّت عينه أيضاً به في الدنيا, ومن قرَّت عينه بالله قرَّت به كلُّ عين, ومن لم تقرَّ عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

(11)ـ

القلوب ثلاثة:

قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير, فذلك قلب مُظلم, قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه, لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً, وتحكَّم فيه بما يريد, وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه, لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية, فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجاولات ومطامع, فالحرب دُول وسِجال, وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة, فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر, ومنهم من هو تارة

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان, قد استنار بنور الإيمان, وانقشعت عنه حجب الشهوات, وأقلعت عنه تلك الظلمات, فلنوره في قلبه إشراق, ولذلك الإشراق إيقاد, لو دنا منه الوسواس احترق به, فهو كالسماء التي حُرست بالنجوم, فلو دنا منها الشيطان ليتخطاها رُجِم فاحترق, وقد مُثِّل ذلك بمثال حسن وهو ثلاثة بيوت:

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره, وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره, وليس فيه جواهر الملك وذخائره, وبيت خال صفر لا شيء فيه.

فجاء اللص ليسرق من أحد البيوت, فمن أيها يسرق ؟ !

فإن قلت: من البيت الخالي, كان محالاً, لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق.

وإن قلت: يسرق من بيت الملك, كان ذلك من كالمستحيل الممتنع, فإن عليه من الحرس...ما لا يستطيع اللص الدنو منه, كيف وحارسه الملك نفسه ؟!.

فلم يبق للصِّ إلا البيت الثالث, فهو الذي يشُنُّ عليه الغارة.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل, ولينزله على القلوب, فإنها على منواله.

(12)ـ

من عامل الخلق بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة:

في الصحيح: (إن الله تعالى وتر يحبُّ الوتر)

وهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء, وإنما يرحم من عباده الرحماء, وهو ستير يحب من يستر على عباده, وهو عفو يحب من يعفو عنهم, وغفور يحب من يغفر لهم ولطيف يحب اللطيف من عباده, ويبغض الفظ الغليظ القاسي الجعظري الجواظ, ورفيق يحب الرفق, وحليم يحب الحلم, وبر يحب البرّ وأهله, وعدل يحب العدل, وقابل للمعاذير يحب من يقبل معاذير عباده, ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً وعدماً, فمن عفا عفا عنه, ومن غفر غفر له, ومن سامح سامحه, ومن حاقق حاققه, ومن رفق بعباده رفق به, ومن رحم خلقه رحمه, ومن أحسن إليهم أحسن إليه, ومن صفح عنهم صفح عنه, ومن جاد عليهم جاد عليه, ومن نفعهم نفعه, ومن سترهم ستره, ومن تتبع عوراتهم تتبع عورته, ومن هتكهم هتكه وفضحه, ومن منعهم خيره منعه خيره, ومن شاق الله شاق الله تعالى به, ومن مكر مكر به, ومن خادع خادعه, ومن عامل خلقه بصفةٍ عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة, فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه.

ولما أظهر المنافقون الإسلام, وأسروا الكفر أظهر الله تعالى لهم يوم القيامة نوراً على الصراط, وأظهر لهم أنهم يجوزون الصراط, وأسرَّ لهم أن يطفئ نورهم, وأن يُحال بينهم وبين قطع الصراط, جزاءً من جنس أعمالهم.

وكذلك من يُظهر للخلق خلاف ما يعلمه الله فيه, فإن الله تعالى يظهر له في الدنيا والآخرة أسباب الفلاح والنجاح والفوز, ويبطن له خلافها, وفي الحديث: (من راءى راءى الله به, ومن سمَّع سمَّع الله به)

(13)ـ

الصوم المشروع:

الصائم هو الذي صامت جوارحه عن الآثام, ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور, وبطنه عن الطعام والشراب, وفرجه عن الرفث, فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه, وإن فعل لم يفعل ما يفسد صومه, فيخرج كلامه كله نافعاً صالحاً, وكذلك أعماله. فهي بمنزلة الرائحة التي يشمها من جالس حامل المسك, كذلك من جالس الصائم انتفع بمجالسته له, وأُمِن فيها من الزور والكذب والفجور والظلم, هذا هو الصوم المشروع, لا مجرد الإمساك عن الطعام والشراب.

فالصوم هو صوم الجوارح عن الآثام, وصوم البطن عن الشراب والطعام, فكما أن الطعام والشراب يقطعه ويفسده, فكذلك الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته, فتُصيره بمنزلة من لم يصُم.

صدأُ القلب بأمرين, وجلاؤه بشيئين:

وصدأُ القلب بأمرين: بالغفلة, والذنب, وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر, فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه, وصداؤه بحسب غفلته, وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه, فيرى الباطل في صورة الحق, والحق في صورة الباطل, لأنه لما تراكم عليه الصأ أظلم, فلم تظهر فيه صور الحقائق كما هي عليه.

فإذا تراكم عليه الصدأ واسودَّ, وركبه الرانُ, فسد تصوره وإدراكه, فلا يقبل حقاً, ولا ينكر باطلاً, وهذا أعظم عقوبات القلب,وأصل ذلك من الغفلة, واتباع الهوى, فإنهما يطمسان نور القلب, ويعميان بصره, قال الله تعالى: [وَلا تُطِع مَن أَغفَلنا قَلبَهُ عَن ذِكرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمرُهُ فُرُطًا] [الكهف:28]

(14)ـ

أمور ذكره عن شيخه: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله:

* كان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه, يقول: ما ندم من استخار الخالق, وشاور المخلوقين, وتثبت في أمره.

* سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن الله أوحى إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم: أتدري لم اتخذتك خليلاً ؟ قال: لا, قال: لأني رأيت العطاء أحبَّ إليك من الأخذ.

* حديث علي, ووصية النبي صلى الله عليه وسلم له ولفاطمة رضي الله تعالى عنهما: أن يسبحا إذا أخذا مضاجعهما للنوم ثلاثاً وثلاثين, ويحمد ثلاثين وثلاثين, ويكبرا أربعاً وثلاثين, وقال: (هو خير لكما من خادم)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: بلغنا أنه من حافظ على هذه الكلمات لم يأخذه إعياء فيما يعانيه من شُغلٍ, وغيره.

* حضرتُ شيخ الإسلام ابن تيمية مرةً صلى الفجر, ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار, ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي, ولو لم أتغذ هذا الغذاء لسقطت قوتي, أو كلاماً قريباً من ذلك.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها, لاستعد بتلك الراحة لذكر آخر, أو كلاماً هذا معناه.

* وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في مشيه, وكلامه, وإقدامه, وكتابته, أمر عجيباً, فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعه أو أكثر, وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً.

* سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الذكرُ للقلب مثل الماء للسمك, فكيف حال السمك إذا فارق الماء ؟!

* وسمعته قدس الله روحه يقول إن في الجنة جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري, أين رحت فهي معي لا تفارقني, أنا حبسي خلوة, وقتلي شهادة, وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه بالقلعة: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة, أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير, ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. ما شاء الله.

وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى, والمأسور من أسره هواه.

ولما أُدخل القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: [فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ] [الحديد:13]

وعَلِمَ اللهُ ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط, مع ما كان فيه من ضيق العيش, وخلاف الرفاهية والنعيم, بل ضدها, ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف, وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً, وأشرحهم صدراً, وأقواهم قلباً, وأسرّهم نفساً, تلوح نضرة النعيم في وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف, وساءت منا الظنون, وضاقت بنا الأرض أتيناه, فما هو إلا أن نراه, ونسمع كلامه, فيذهب ذلك كله, وينقلب انشراحاً وقوةً ويقيناً, وطمأنينة, فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه, وفتح لهم أبوابها في دار العمل, فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قُواهم لطلبها والمسابقة إليها.

* في النسائي الكبير عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ آية الكرسي عقب كل صلاة, لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت) يعني لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلا أن يموت,

وبلغني عن شيخ الإسلام ابن تيمية قال ما تركته عقيب كل صلاة إلا نسياناً...

* سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يذكر أثراً في هذا الباب, وهو أن الملائكة لما أُمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا, كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ؟ فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم, فلما قالها حملوه.

* قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوماً: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد, التسبيح أو الاستغفار, فقال: إذا كان الثوب نقياً فالبخور وماء الورد أنفع له, وإن كان دنساً فالصابون والمار الحارُّ أنفع له, فقال لي رحمه الله تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنِسة ؟!

المنافقين:

لعموم البلية بهم, وضرر القلوب بكلامهم, هتك الله أستارهم في كتابه غاية الهتك, وكشف أسرارهم غاية الكشف, وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ولم يزل عز وجل يقول: [ومنهم.] [ومنهم.] [ومنهم.] حتى انكشف أمرهم وبانت حقائقهم وظهرت أسرارهم,وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين, فذكر في أوصاف المؤمنين ثلاث آيات, وفي أوصاف الكفار آيتين, وفي أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية, لعموم الابتلاء بهم, وشدة المصيبة بمخالطتهم, فإنهم من الجلدة مظهرون الموافقة والمناصرة, بخلاف الكافر الذي قد نابذ بالعداوة, وأظهر السريرة, ودعاك بما أظهره إلى منابذته ومفارقته.

من فوائد ذكر الله تعالى:

في الذكر نحو من مائة فائدة:

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعُه ويكسره.

الثانية: أنه يُرضي الرحمن عز وجل.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب الفرح والسرور والانبساط.

الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن.

السادسة: أنه يُنور الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

التاسعة: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام, وقطبُ رحى الدين, ومدار السعادة والنجاة, وقد جعل الله لكل شيء سبباً, وجعل سبب المحبة دوام الذكر, فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل فليلهج بذكره.

العاشرة: أنه يورثه المراقبه فيدخله في باب الإحسان, فيعبد الله كأنه يراه.

الحادية عشرة: أنه يورثه الإنابة, وهي الرجوع إلى الله عز وجل...فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه, وملاذه ومعاذه, وقِبلة قلبه, ومهربه عند النوازل والبلايا.

الثانية عشرة: أنه يورثه القرب منه, فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قُربه منه.

الثالثة عشرة: أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة, وكلما أكثر الذاكر ازداد من المعرفة.

الرابعة عشرة: أنه يُورثه الهيبة لربه عز وجل, لشدة استيلائه على قلبه.

الخامسة عشرة: أنه يورثه ذكر الله تعالى له, كما قال تعالى: [فاذكروني أذكركم] [البقرة:152] ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً.

السادسة عشرة: أنه يورث حياة القلب.

السابعة عشرة: أنه قوت القلب والروح.

الثامنة عشرة: أنه يورث جلاء القلب من صداه.

التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويُذهبها.

العشرون: أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى.

الحادية والعشرون: أن العبد إذا تعرَّف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدة.

الثانية والعشرون: أنه منجاة من عذاب الله تعالى.

الثالثة والعشرون:أنه سبب نزول السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر

الرابعة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش

الخامسة والعشرون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة.

السادسة والعشرون: أنه يسعد الذاكر بذكره, ويسعد به جليسه.

السابعة والعشرون: أنه يؤمّن العبد من الحسرة يوم القيامة.

الثامنة والعشرون: أنه مع البكاء سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه.

التاسعة والعشرون أن الاشتغال به سبب لعطاء الله الذاكر أفضل ما يعطى السائلين

الثلاثون: أنه أيسر العبادات, وهو من أجلها وأفضلها.

الحادية والثلاثون: أنه غراس الجنة.

(19)ـ

الثانية والثلاثون: أن العطاء والفضل الذي رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال

الثالثة والثلاثون: أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يُوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده

الرابعة والثلاثون: أن الذكر يُسير العبد وهو قاعد على فراشه, وفي سوقه, وفي حال صحته وسقمه, وحال نعيمه ولذته, ومعاشه, وقيامه وقعوده واضطجاعه, وسفره وإقامته, فليس في الأعمال شيء يعُم الأوقات والأحوال مثله.

الخامسة والثلاثون:أن الذكر نور للذاكر في الدنيا ونور في القبر, ونور له في معاده, يسعى بين يديه على الصراط, فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى

السادسة والثلاثون: أن في القلب خلة وفاقة لا يسُدها شيء ألبته إلا ذكر الله عز وجل.

السابعة والثلاثون: أن الذكر يجمع المتفرق, ويفرق المجتمع, ويقرب البعيد, ويُبعد القريب, فيجمع ما تفرق على العبد من قلبه وإرادته...والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عليه...ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم, والغموم, والأحزان, والحسرات على فوت حُظُوظه ومطالبه.

ويفرق أيضاً ما اجتمع على حربه من جند الشيطان.

وأما تقريبه البعيد, فإنه يقرب إليه الآخرة...ويبعد القريب إليه وهي الدنيا.

الثامنة والثلاثون: أنه ينبه القلب من نومه, ويوقظه من سِنته, والقلب إذا كان نائماً فاتته الأرباح والخسائر.

التاسعة والثلاثون: أن الذكر شجرة تُثمر المعارف.

(20)ـ

الأربعون: أن الذكر يعدلُ عتق الرقاب, ونفقة الأموال, والحمل على الخيل في سبيل الله عز وجل, ويعدلُ الضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل.

الحادية والأربعون: أن الذكر رأس الشكر, فما شكر الله تعالى من لم يذكره.

الثانية والأربعون: أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطباً بذكره, فإنه اتقاه في أمره ونهيه, وجعل ذكره شعاره.

الثالثة والأربعون: أن في القلب قسوةً لا يُذيبها إلا ذكر الله تعالى, فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى...لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة, فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار.

الرابعة والأربعون: أن الذكر شفاء القلب ودواؤه, والغفلة مرضه.

الخامسة والأربعون: أن الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها, والغفلة أصل معاداته وأُسُّها, فإن العبد لا يزال يذكر ربه عز وجل حتى يحبه فيواليه, ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويعاديه.

السادسة الأربعون: أنه ما استجلبت نعم الله عز وجل واستُدفعت نقمه بمثل ذكر الله تعالى, فالذكر جلاب للنعم, دفاع للنقم.

السابعة والأربعون:أن الذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح وفاز كل الفوز قال سبحانه وتعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا *وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا *هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا] [الأحزاب:41-43] فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هي على الذاكرين له كثيراً.

(21)ـ

الثامنة والأربعون: أن من شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا فليستوطن مجالس الذكر, فإنها رياض الجنة.

التاسعة والأربعون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة, فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يُذكر الله تعالى فيه...فمجالس الذكر مجالس الملائكة, ومجالس الغفلة مجالس الشياطين.

الخمسون: أن الله عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته.

الحادية والخمسون: إن جميع الأعمال إنما شُرعت إقامةً لذكر الله تعالى, والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى, قال سبحانه وتعالى: [وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكري] [طه:14]

الثانية والخمسون: أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكراً لله عز وجل, فأفضل الصُّوَّام أكثرهم ذكراً لله عز وجل في صومهم, وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكراً لله عز وجل, وأفضل الحجاج أكثرهم ذكراً لله عز وجل, وهكذا سائر الأعمال.

الثالثة والخمسون: أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته, فإنما يُحببها إلى العبد, ويُسهلها عليه, ويُلذذها له, ويجعل قرة عينه فيها, ونعيمه وسروره بها, بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل, والتجربة شاهدة بذلك.

الرابعة والخمسون: أن ذكر الله يُسهل الصعب ويُيسر العسير ويُخفف المشاق, فما ذكر الله عز وجل على صعب إلا هان وعلى عسير إلا تيسر, ولا مشقة إلا خفت, ولا شدة إلا زالت ولا كربة إلا انفرجت فذكر الله تعالى هو الفرج..بعد الغم والهم

الخامسة والخمسون: أن ذكر الله تعالى يُذهب عن القلب مخاوفه كلها, وله تأثير عجيب في حصول الأمن, فليس للخائف الذي اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل, فإنه بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه..والغافل خائف مع أمنِه.

(22)ـ

السادسة والخمسون: أن عُمال الآخرة في مضمار السباق, والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار, ولكن القتر والغبار يمنع من رؤية سبقِهم, فإذا انجلى الغبار وانكشف رآهم الناس وقد حازوا قَصَبَ السِّبق.

السابعة والخمسون: أن الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبده, فإنه خبر عن الله تعالى بأوصاف كماله ونعوت جلاله, فإذا أخبر بها العبد صدَّقه ربه, ومن صدَّقه الله تعالى لم يُحشر مع الكاذبين, ورُجي له أن يُحشر مع الصادقين.

الثامنة والخمسون: أن دُور الجنة تُبنى بالذكر, فإذا أمسك الذاكرُ عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء.

التاسعة والخمسون: أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم, فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال كان الذكر سداً في تلك الطريق, فإذا كان ذكراً دائماً كاملاً كان سداً محكماً لا منفذ فيه, وإلا بحسبه.

الستون: أن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب.

الحادية والستون: أن الجبال والقفار تتباهي, وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها.

الثانية والستون: أن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق, فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل, قال الله عز وجل في المنافقين: [وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا] [النساء:142] قال كعب: من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق.

الثالثة والستون: أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء, فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر, والنعيم الذي يحصل لقلبه لكفى به, قال مالك بن دينار: ما تلذَّذ المُتلذِّذون بمثل ذكر الله عز وجل.

الرابعة والستون: أنه يكسو الوجه نُضرة في الدنيا, نوراً في الآخرة, فالذاكرون أنضر الناس وجوهاً في الدنيا, وأنورهم في الآخرة.

الخامسة والستون: أن في دوام الذكر في الطريق, والبيت, والحضر, والسفر, والبقاع, تكثير الشهود للعبد يوم القيامة, فإن البقعة, والدار, والجبل, والأرض تشهد للذاكر يوم القيامة.

السادسة والستون: أن في الاشتغال بالذكر اشتغالاً عن الكلام الباطل...فإن اللسان لا يسكت ألبتة, فإما لسان ذاكر, وإما لسان لاغٍ, ولا بد من أحدهما.

فهي النفس إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل, وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل, سكنته محبة المخلوقين ولا بُد, وهو اللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو, وهو عليك ولا بُد, فاختر لنفسك إحدى الخُطتين, وأنزلها في إحدى المنزلتين.

السابعة والستون: وهي التي بدأنا بذكرها, وأشرنا إليها إشارة, فنذكرها ها هنا مبسوطة لعظيم الفائدة بها, وحاجة كل أحدٍ, بل ضرورته إليها, وهي أن الشياطين قد احتوشت العبد, وهم أعداؤه, فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المُحنقُون عليه غيظاً, وأحاطوا به, وكُل منهم يناله بما يقدر عليه من الشِّر والأذى ؟!

ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل.

فالشيطان لا يُحرزُ العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عز وجل.

أنواع الذكر:

الذكر نوعان:

أحدهما: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته, والثناء عليه بها, وتنزيهه وتقدسيه عما لا يليق به تبارك وتعالى.

وهذا أيضاً نوعان: أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر, وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث, نحو: (سبحان الله, والحمد لله, ولا إله إلا الله, والله أكبر) فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء, وأعمُّهُ, نحو: (سبحان الله عدد خلقه) فهذا أفضل من قولك: (سبحان الله) وقولك: (الحمد عدد ما خلق في السماء, وعدد ما خلق في الأرض, وعدد ما بينهما, وعدد ما هو خالق) أفضل من مجرد قولك: (الحمد لله) الثاني: الخبر عن الرب تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته, نحو قولك: (الله عز وجل يسمع أصوات عباده, ويرى حركاتهم, ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم, وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم, وهو على كل شيء قدير, وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته الواجد, ونحو ذلك.

النوع الثاني من الذكر: ذكر أمره ونهيه وأحكامه, وهو أيضاً نوعان:

أحدهما: ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا, ونهى عن كذا, وأحب كذا, وسخط كذا, ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره فيُبادر إليه, وعند نهيه فيهرُبُ منه.

فذكر أمره ونهيه شيء, وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر, فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر, وأجلُّه, وأعظمه فائدة..ومن ذكره سبحانه وتعالى: ذكرُ آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه, ومواقع فضله على عبيده.

(25)ـ

أفضل الذكر:

أنواع الذكر..تكون بالقلب واللسان تارة, وذلك أفضل الذكر.

وبالقلب وحده تارة, وهي الدرجة الثانية.

وباللسان وحده تارة, وهي الدرجة الثالثة.

فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان, وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده, لأن ذكر القلب يُثمرُ المعرفة, ويهيج المحبة, ويُثيرُ الحياء, ويبعثُ على المخافة, ويدعو إلى المراقبة, ويردع عن التقصير في الطاعات, والتهاون في المعاصي والسيئات, وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من ذلك الإثمار, وإن أثمر شيئاً منها فثمرته ضعيفة.

الذكر أفضل من الدعاء:

الذكر أفضل من الدعاء, لأن الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه, والدعاء سؤال العبد حاجته, فأين هذا من هذا....ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله تعالى, والثناء عليه بين يدي حاجته.

قراءة القرآن أفضل من الذكر:

قراءة القرآن أفضل من الذكر, والذكر أفضل من الدعاء, هذا من حيث النظر إلى كل كل منهما مجرداً, وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل.

الصلاة أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده:

لما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء, وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه كانت أفضل من كُلّ من القراءة والذكر والدعاء بمفرده, لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

(26)ـ

آية عظيمة ينبغي أن يتأملها اللبيب:

ضرب الله سبحانه وتعالى لنوره في قلب عبده مثلاً لا يعقله إلا العالمون فقال سبحانه وتعالى [اللَّـهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] [النور:35] وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره, وهو نوره الذي أنزله إليهم, فأحياهم به, وجعلهم يمشون به بين الناس, وأصله في قلوبهم, ثم تقوى مادته, وتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم, بل وثيابهم ودُورهم, يُبصرهُ من هو من جنسهم, وسائر الخلق له منكرون

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور, وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه, وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا, فمنهم من نوره كالشمس, وآخر كالقمر, وآخر كالنجم, وآخر كالسراج, وآخر يُعطى نوراً على إبهام قدمه, يضيء مرة ويطفأ أخرى, إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا, فأُعطى على الجسر بمقدار ذلك, بل هو نفس نوره ظهر له عياناً, ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا, بل كان نوره ظاهراً لا باطناً أُعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذّهاب.

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان في طرفي نقيض.

أحدهما: قلب حجري قاس لا رحمة فيه, ولا إحسان ولا بِر, ولا له صفاء يرى به الحق, بل هو جبار جاهل, لا عالم بالحق, ولا راحم للخلق.

وبإزائه قلب ضعيف مائي, لا قوة فيه, ولا استمساك, بل يقبل كل صورة, وليس له قوة حفظ تلك الصور, ولا قوة التأثير في غيره, وكلُّ ما خاطه أثَّر فيه, من قوي وضعيف, وطيبٍ وخبيث.

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة, ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة, فذكر سبحانه وتعالى نوره في السموات والأرض, ونوره في قلوب عباده المؤمنين, النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب, الذي استنارت به البصائر والقلوب, والنور المحسوس المشهود بالأبصار, الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسُّفلي, فهما نوران عظيمان, وأحدهما أعظم من الآخر.

وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع, لم يعش فيه آدمي ولا غيره, إنما يتكون حيث النور, ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيشُ فيها حيوان, ولا يتكون ألبتة فكذلك أمة فُقد منها نور الوحي والإيمان, وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد, لا حياة له ألبتة. كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه.

فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافياً, وإلى الإيمان وحقائقه منادياً, وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً, وإلى طريق الرشاد هادياً, لقد أسمع منادي الإيمان لو صادف آذاناً واعية...لكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة فأغلقت أبواب رشدها, وأضاعت مفاتيحها, وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام, وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل فلم تُصغِ بعده إلى الملام, ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام, ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة, وأسر الهوى والشهوة, وما " لجرح بميتٍ إيلام ".

(28)ـ

الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات:

جعل النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام, وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوةً إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم.

الطبقة الثانية: حفظت النصوص, وكان همها حفظها وضبطها, فوردها الناس وتلقوها منهم, فاستنبطوا منها, واستخرجوا كنوزها.

فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم, وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً.

الطبقة الثالثة: أشقى الخلق, الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأساً, فلا حِفظَ, ولا فهم, ولا رواية, ولا دراية, ولا رعاية...[إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً] [الفرقان:44] فهم الذين يضيقون الديار, ويُغلون الأسعار, إن هم أحدهم إلا بطنه وفرجه, فإن ترقت همتهُ فوق ذلك كان همُّه – مع ذلك – لباسه وزينته – فإن ترقَّت همَّته فوق ذلك كان في داره وبستانه ومركوبه, فإن ترقَّت همَّته فوق ذلك, كان همُّه في الرياسة والانتصار للنفس [الكلبية, فإن ارتفعت همَّته عن نصرة النفس الكلبية, كان همُّه في نصرة النفس السبيعية]

وأما النفس المَلَكِية فلم يُعطها أحد من هؤلاء.

فإن النفوس ثلاثة: كلبية, وسبُعية, ومَلَكية.

فالكلبية: تقنع بالعظم, والكسرة, والجيفة, والعذرة.

والسَّبُعية: لا تقنع بذلك, بل بقهر النفوس, والاستيلاء عليها بالحق والباطل.

وأما المَلَكية: فقد ارتفعت عن ذلك وشمرت إلى الرفيق الأعلى فهمتها العلم والإيمان

فوائد متفرقة:

* في الصحيحين عن أبي مسعود الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه) الصحيح أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه.

* الرجل الطيّب البر تشم منه رائحة طيبة وإن لم يمس طيباً, فيظهر طيب رائحة روحه على بدنه وثيابه, والفاجر بالعكس, والمزكوم الذي أصابه الهواء لا يشمُّ هذا, ولا هذا, بل زكامه يحمله على الإنكار.

* النبي صلى الله عليه وسلم أمر في الكسوف بالصلاة, والعتاقة, والمبادرة إلى ذكر الله تعالى, والصدقة, فإن هذه الأمور تدفع أسباب البلاء.

* السخيُّ قريب من الله تعالى, ومن خلقه, ومن أهله, وقريب من الجنة, وبعيد من النار....فجود الرجل يُحبّبُه إلى أضداده, وبخله يُبغضه إلى أولاده.

* قد يكون الرجل من أسخى الناس وهو لا يعطيهم شيئاً, لأنه سخا عما في أيديهم وهذا معنى قول بعضهم: السخاء أن تكون بمالك متبرعاً, وعن ما غيرك متورعاً.

* الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة, ونار دنيوية, وجهنم حاضرة.

* تبارك وتعالى, أحقُ من ذُكِر, وأحقُ من عُبِد, وأحقُ من حُمِد, وأولى من شُكِر, وأنصرُ من ابتُغي, وأرأفُ من ملك, وأجودُ من سُئِل, وأعفى من قَدِر, وأكرم من قُصِد, وأعدل من انتقم.

حكمه بعد علمه, وعفوه بعد قدرته, ومغفرته عن عزته, ومنعه عن حكمته, وموالاته عن إحسانه ورحمته.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	3
عناوين السعادة	4
محبطات الأعمال ومفسداتها	4
استقامة القلب	5
علامة التعظيم للأوامر	5
علامات تعظيم المناهي	6
من أراد الله به خيراً	6
ما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما تفريط وإما إفراط	7
خمس سنن في الأذان	7
دواوين الظلم عند الله عز وجل: ثلاثة	8
من فوائد الصدقة وثمارها الطيبة	8
الالتفات المنهي عنه في الصلاة: التفات القلب, والتفات البصر	9
الشيطان يغار من الإنسان إذا قام في الصلاة	10
مراتب الناس في الصلاة	11
القلوب ثلاثة	12
من عامل الخلق بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة	13

الصوم المشروع	14
صدأُ القلب بأمرين, وجلاؤه بشيئين	14
أمور ذكره عن شيخه: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله	15
المنافقين	17
من فوائد ذكر الله تعالى	18
أنواع الذكر	25
أفضل الذكر	26
الذكر أفضل من الدعاء	26
الصلاة أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده	26
آية عظيمة ينبغي أن يتأملها اللبيب	27
الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات	29
فوائد متفرقة	30
الفهرس	31

()-